العمل التطوعي

وأثره في بناء الشخصية

أ.أناهيد السميري

ألقي في صفر ١٤٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

من عناصر الدرس:

- مقدمة حول أهمية الموضوع وسبب طرحه، وأن أساس مشكلتنا وأزمتنا هي الإيمان.
- أربعة مفاهيم حول أسباب ضعف الإيمان
- علاجها (ثلاثة محاور)
- كيف يؤثر الإيمان ويجعلك تشق العمل التطوعي؟ (ثلاثة مسائل)
- أثر العمل التطوعي علينا كأفراد وعلى المجتمع.
- ما الطريق لكي نصل ونكون الأمة التي اجتباها الله، التي ميزتها أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده سبحانه وتعالى ونشكره أن يسّر أسباب الاجتماع، ونسأله أن يجعله اجتماعًا مرحومًا تحفّه الملائكة، ويذكر الله أهله فيمن عنده.

وموضوعنا كما تعلمون هو الكلام حول (**العمل التطوعي وأثره في بناء الشخصية**)، وهذا الموضوع لا تتصوروه بعيدًا عن الواقع، هو موضوع يلامس واقعنا تمامًا، ويعالج مشكلة يعيشها المجتمع خصوصًا فئة الشباب منهم، وهو:

- وجود الوقت
- ووجود الطاقة والفكر
- وعدم وجود العمل المناسب الذي يستغل به هذه العطايا التي تحولت إلى أسباب لبطر الناس.

فنحن الآن نخاف أن نعاقب على بطرنا–وهذا الأمر غاية في الخطورة–، وإذا عددنا النعم لن ننتهي، فنخاف أن يعاملنا الله بما نستحق فتُنزع منا النعم؛ **فعلاجًا لهذا الأمر** :

- لابد أن نجتمع نفتش نعم الله علينا.
- ونقلبها ونشعر بها جميعا.
- ثم نتفق على أنه لابد من استغلالها في أبوابٍ شتى؛ وقد وصفت الشريعة هذه الأبواب وبيّنتها ولم تحصرها في جهة واحدة.

البعض يظن أن التطوع يقصد به فقط صدقة المال؛ يشعرون أنهم لا يستطيعون أن يتطوعوا إلا بشيء مثل هذا، وقد وُصف في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم دقيق التطوع؛ حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة))[1] يعني تكون صاحب قوة ثم تنزع من البئر، وهذا أخوه يقف بعده أو يقف وليس له القدرة على أن ينزع من البئر ماء يقوم هو يفرغ من دلوه إلى دلو أخيه فقد تطوع وتصدق وتقرب، فالأمر ليس كما نظن أنه محصورٌ على أصحاب الأموال.

- وقد أتى الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم واشتكوا له فقالوا: " ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ"[2].

من أصحاب الدثور؟ أصحاب الأموال.

ذهبوا بالأجور لماذا؟ لأنهم يفضلون عليهم، لكن من جهة العبادة متساوون لأنهم يصلون كما يصلوا، يصومون كما يصوموا، لكن أولئك أصحاب الدثور يتصدقون وهؤلاء لا يملكون أن يتصدقوا، فشعروا أنهم سابقين لهم، وشعروا بغصة.

- وهؤلاء يشبهون ما وصف الله عزوجل في سورة التوبة حالهم ﴿تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ لماذا تفيض من الدمع؟ حزنا، أصابهم الحزن؟ سبب الحزن ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢].

انظري إلى الإيمان وكيف وصل أثره في قلوبهم **فسبّب لهم السموّ في أغراضهم وأهدافهم**، هؤلاء يبكون من أجل أنه ليس عندهم ما ينفقوا من أجل أن يدخلوا في الجهاد، وهؤلاء يتنافسون يقولون ذهب أصحاب الدثور بالأجور..

---

[1] رواه الترمذي وحسنه.

[2] رواه مسلم في صحيحه.

واليوم الناس عندهم ما يشبعهم سنين وليس سنة! وما حالهم؟ يبكون، لكنهم يبكون على أنهم لم يجدوا ليس الكماليات بل يبكون لأنهم لم تنتهِ شهواتهم، لم تشبع عيونهم ((ما يملأ ابن آدم إلا إذا امتلئ جوفه ترابا))[1] تلك الساعة يستقر!

فإذا بقي تنافس الناس كما ترون وكما نحن ندخل معهم في التنافس على أن تذهب طاقاتنا وقدراتنا، كبيرنا وصغيرنا في التنافس حول الدنيا، ماذا سيحصل؟ سنُحرم النعم، والسبب أن هذه معاملة البطران بنعم الله؛ لأن من شعر بنعمة الله أكيد أنه سيصل إلى مشاعر أنه عليه أن يزكّيها، من شعر بنعمة الله لابد أن يطلب أن يكون مثل الأبرار يقولون ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

نتكلم في هذا الموضوع المهم ليس من باب تكميل ناقص، أو مجرد طرح موضوع من المواضيع التي يمكن تسد بها الثغرة، نحن في حاجة ماسة أن نعرف أننا في أزمة لكن ليست أزمة اقتصادية، ولا أخلاقية، ولا صناعية، ولا ثقافية **إنها أزمة الإيمان**، ضعُف الإيمان، أصبحت الدنيا مستولية على قلوب الخلق، لدرجة أنهم لا يشبعون مما يملكون وبالتالي لا يتمتعون به؛ لأن الطمع يأكل القلوب، فهي تريد أكثر وأكثر هذا من جهة، والأمر الآخر يتحاسدون، فإذا تمكّنوا من شيء حبسوه، إذا استطاعوا أن يتعلموا شيء لم يتعلمه غيرهم حبسوه، ليس فقط يحبسوه ثم يشعروك أن الذي تعلموه شيء مهم جدا، ثم يضغطون عليك أن تدخل دورتهم بعد ما يسوقوا لها، يضغطون عليك ويحسسونك أنك لا تعرف شيء إذا لم تعرف هذه المعلومة، ثم تعال أدخل دورتنا، ودوروتنا هذه كذا وكذا، بحيث يصبح المجتمع ينهش بعضه بعضًا، نهش هذا!

في مقابل أن المجتمع الذي سما فَوَصَل شأنه إلى السماء، كان مجتمع يتنافس في أبواب طاعة الله. إنهم لم يحسدوا الأغنياء على أن معهم أموال، إنهم حسدوهم على استطاعتهم على الإنفاق وعدم استطاعتهم هم!

انظر إلى السموّ، فماذا يريدون؟ يريدون باباً ينافسون فيه فيصلون إلى ما وصلوا إليه. أين يصلون؟! عند من يصلون؟! في دنياهم؟ في منزلتهم؟ يصلون إلى ربهم، كم مرة دمعت عيوننا أنّ أبوابًا من الخير أغلقت علينا، كم مرة شعرنا بالضيق أننا ما استطعنا أن ننجز خيرًا للغير في يومنا، كم مرة شعرنا بمسؤوليتنا عن إصلاح مجتمعنا، هذا كله داء دبّ إلينا بسبّب ضعف الإيمان، هذه العلة ولا علة غيرها، لما ضعف الإيمان صارت الدنيا هي ذاك الهدف العالي، ولتتصوري كيف الإيمان لما يدخل القلب فيتحول الإنسان فيصل إلى السمو.

انظري إلى سحرة فرعون، لما أتوا وهم كافرين وبالسحر أتوا ينتصروا على موسى عليه السلام، ماذا قالوا لفرعون؟ ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧] أي لو غلبنا تعطينا من الدنيا؟ معلوم بماذا أجابهم وكيف طمأنهم أنه سيعطيهم، دبّ الإيمان إلى قلوبهم وتحوّلوا، قالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [سورة طه: ٧٢]، أصبحت اسمها عندهم الحياة الدنيا، متى؟ في لحظة واحدة عندما دخل الإيمان.

[1] رواه الشيخان.

لازم نشعر أن أزمتنا أزمة إيمان، لو كنا نطمع فيما عند الله، ما ضاعت أوقاتنا في التنافس على الدنيا، ولا ضاعت جهودنا في تدريب أبنائنا للتنافس عليها.

إنا نرى في كل زاوية من زوايا أحوالنا اليوم نقطة فيها ثغرة من جهة العناية بالدنيا، إلى أن وصلنا إلى العبادات المحضة، يعني ليس عمل تخدمي فيه غيرك إنما العبادات المحضة، مثلا الطواف، السعي العمرة، كم في العمرة والسعي من شخص يصوِّر نفسه عند الكعبة من أجل ماذا؟! علامة استفهام! ليس هناك أي إجابة! لكن هناك أمر خطير، ثم في وسط هذه الأحداث تجدي امرأة ومعها طفلها وهم في صحن الكعبة، في المكان العظيم الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير فيه بقدميه، إنه وطأ هذا المكان صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله، هذا المكان الطاهر المقدس، ماذا تفعل؟ ولدها أمامها وهي تجلس أمامه والكعبة خلف الولد تقول له اضبطت نفسك وارفع يديك كأنك تدعو! وتصوّره! انظري هذا التمرين على الرياء، التمرين على الظهور، التمرين على الدنيا، في كل ثغرة من الثغرات تجد الدنيا قد ملأت أفئدة الناس.

النتيجة: أن كل شخص أصبح يريد أن يكون هو العال، هو الأحسن، هو الأعظم، أُصيب الناس بمرض اسمه **مرض العلو**، هذا المرض مرض فرعوني، هذا المرض مرض قاروني، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورةالقصص: ٢٨] وعندما تسمعين عن قارون ما تسمعين عنه إلا هذا الخبر ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ . .﴾ [سورة القصص: ٧٦] ما تعرفون وصفه إلى آخره، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[القصص : ٨١] ثم في نفس السياق ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

أصبحنا نمارس مرض العلو على مستوى الأفراد، على مستوى العوائل، على مستوى الإخوة، على مستوى ذوي الرحم، ولو قرأتِ قول علي ابن طالب –رضي الله عنه– ترتعدين في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ! تقرأين هذا القول في ابن كثير فتسمعين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يقول: "**من العلو أن تريد أن يكون نعلك خيرٌ من نعل أخاك**" من العلو! وهل نحن نفكر أن يكون نعلنا خيرٌ من نعل أخانا فقط؟! طبعًا تعرفون الجواب.

هذا كله جعل المجتمع يتفكك من الداخل وإن كان له صورة من الخارج جيدة، ما ننكر أن الله أنعم علينا بنعم كثيرة، لكن هذه ستذوب وتذهب، وتذوب وتذهب إذا بقينا في نفس الطريق، الطمع في الدنيا، مرض الظهور، حب العلو، كلها أمراض تجعلك تستجيب للشح الذي قد رُكِّبَ في النفس، والله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

إذن على هذا التقرير نحن مصابين جميعًا كابتلاء ابتُلى به الخلق، ابتلوا بشحّ في نفوسهم، يدخل الإيمان على النفوس ماذا يفعل؟ يصبح الإنسان لما يتطوع ويتقرب ويعين ويتعاون، يعرف أن هذا يقع عند الله قبل أن يقع عند الناس، الذي يفكر في لقاء الله يفكر في الشمس التي ستكون قريبة، فيرى الفقير الذي يُتصدق عليه نعمة من الله؛ لأن بقبول الله لهذه الصدقة ستكون ظلًا لهذا العبد

من الشمس القريبة ((كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ))[1]، سيرى شق التمرة التي يؤثر غيره على نفسه فيها تحجبه من النار في ذاك الموقف العظيم لما وصف –وصفه النبي صلى الله عليه وسلم– ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ))[2] فينظر الإنسان عن يمينه فيرى ما قدم، وينظر على شماله فيرى ما قدم، ينظر أمامه يرى النار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ))[3].

هل أنت مؤمن بما ستقدم عليه؟! ضعف الإيمان بما نقدم إليه جعل للدنيا مكانة عظيمة، جعل الدنيا هي الأهداف، عظّمها، لما عظّم الدنيا أصبح تعاون في شأن الدين، والتعاون في شأن الدنيا الذي ليس وراءه مصالح أصبح أمرًا ثقيلًا على النفس، أصبح التطوع في خدمة الناس ثقيلًا على النفس، والسبب أن كل شخص يريد أن يكون أحسن من غيره بما يملك، عند من؟ عند الناس. لكن لو أراد أن يكون أحسن من غيره عند الله لبذل ما معه، لأعطى الناس ما معه، فتكون النتيجة أنه يرتفع عند ربه.

نتفق على مفاهيم (أسباب ضعف الإيمان):

المفهوم الأول: ابتلينا في هذا الزمان بالشح في جميع جهات حياتنا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ودُرِّبوا أيضا أبناءنا على ذلك بكلمات لا نلحظها في كلامنا وتصرفاتنا، فإذا اجتهد وتعلم بخل بما تعلم، فلا يُعلِّم أحدا، إذا كنت تملك قدرة أو مهارة في شأن الدنيا أو الآخرة تشعر أنه لا قيمة لتعليمها لغيرك، فابتلينا أولًا بظهور الشح، والشح هذا ليس في المال فقط إنما الشح في كل شيء، فيما تملك من مهارات، فيما تملك من قدرات، فيما تملك من مال، بل وصلنا للشح حتى في السلام الشرعي! إذا أعرفك أقول لك السلام عليكم، إذا ما أعرفك ما يستاهل! ما الذي يثقل السلام على اللسان؟! الشح، وإحساس الإنسان أن لا فائدة من وراء السلام على من لا يعرف.

المفهوم الثاني: ابتلينا بضعف الإيمان؛ الإيمان باليوم الآخر، بلقاء الله، بالأجور المرتبة؛ وأصبحنا نعامل الناس بدل ما نعامل الله.

نمثّل بالسلام، لو أنا مؤمنة أن (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) هذه وراءها أجور، وأن لك أجر كذا لو قلت السلام عليكم لفعلت، لكن مع ضعف الإيمان تحصل الأعمال على أنها عادات، فيشح الإنسان حتى بالسلام، الذي صاحبه الله، الله هو السلام، وهو الذي نسأله أن ينزل علينا السلام، فأنت تدعو لنفسك ولإخوانك تسأل الله باسمه السلام أن ينزل عليك وعليه السلام؛ لأنه هو سيرد عليك ويقول: وعليك السلام، فأنت تقول أنا أسأل الله باسمه السلام أن ينزل علينا السلام والرحمة والبركات. ألسنا نريد الحب في بيوتنا، بيننا وبين أبنائنا، ألسنا نريد الحب في أعمالنا والناس الذين يعملوا معنا، ما الطريق؟! ماذا

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم، هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه.
[2] رواه الشيخان.
[3] رواه الشيخان.

وصف النبي صلى الله عليه وسلم طريقًا للوصول إلى هذا الحب؟ ((أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))[1]

والسبب أن الذي يدخل فيسلم يسأل الله باسمه السلام أن ينزل السلام والرحمة والبركات، فيستجيب الله، والله عز وجل قريب مجيب، فتنزل الرحمة والبركات، وهو يقول لك وعليك السلام ويزيد على ما قلت، فيكون أثر هذا أن الله يستجيب، ويعطي هؤلاء المسلِّمين ما طلبوا من الرحمة والبركات، فتكون مجالسنا مجالس البركات، لكن حتى لما نقول السلام عليكم ما تظهر وراءها المعاني المطلوبة!

لا ينتشر الشح ويصبح طبعًا في الناس إلا إذا ضعف الإيمان، -وسنقف أماما ضعف الإيمان وقتًا يسيرًا حتى نبيّن هذا الإيمان ما أهميته من أجل أن يحصل السمو- لأن الشح يدنّيك، يجعلك دنيّ في الأرض، أما الإيمان سيجعلك سامي، في السمو..

إنّ الإيمان ينقل الإنسان من النظرة الضيّقة في المصالح إلى النظرة العظيمة إلى النظرة الحقيقة، فوقت ما يُحسن يسمع كلام الله، فيتنبه:

- ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] فماذا يكون أثر ذلك؟! أنه يفهم حقيقة الحياة، لو كنت مؤمنا بالله، وأنّ هذا الكلام كلام الله، وأنّ ما في القرآن حقائق أخبرك الله بها لتعرف الحياة التي تعيشها، وتعرف الغيب الذي ستستقبله، متى ستتردد في الإحسان؟! إذا علمت أن الإحسان لأي أحد بأي نوع من الإحسان سيكون أثره على عليك.
- ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان : ٢٢] إذا كنت مؤمنا أن من أسماء الله الشكور الذي يعطي على العمل القليل الأجر الكثير، متى ستتردد أنك تحسن وأنت تعلم أن ربك في السماء، الملك، العظيم، الغني، الحميد، يده سحاء الليل والنهار، لو أعطى كل الخلق أمانيهم وفوق ما يتمنون، ما نقص في ملكه شيء، هذا الملك العظيم يشكرك على أنك أزحت غصن شوكٍ من طريق المسلمين! متى ستتردد أن في أنك تحسن ولو بكلمة متى؟! لكن الإشكال في الإيمان، ما علمنا عن ربنا، وكمال صفاته، وأنه شكور يشكر عباده، ولا علمنا على أن هذا الإحسان مردوده لأنفسنا، وأننا يوم أن نلقاه سبحانه وتعالى سيكون أثر هذا الإحسان علينا.

فضعف الإيمان أورث الناس زُهدًا في العمل الصالح، فكانت النتيجة كما نرى: انتشار الشح، انتشار البخل، تجاهل أبواب الخير المفتوحة، ونحن نعلم أن من فضل الله عزوجل ومنّته أن فتح للخلق أبوابًا عظيمة للبر والتقوى والاقتراب منه، لكن الزهد فيها بسبب الشح.

على كل حال لو بحثتم في القرآن والسنة كيف أن معاملة الله في الإحسان إلى الخلق، كيف الله يعامل الناس لو أحسنا إلى الخلق سترون عجبا، فكلنا نعلم أن من فرج على أخيه كربة فرج الله عليه كربة ، كربة من كرب الآن؟ لا، كربة من كرب يوم القيامة، أتدري ما يوم القيامة! لو تؤمن ما هو يوم القيامة كان بذلت اليوم لتفريج الكرب لتتفرج الكرب العظيمة، لكن سنبقى نقول أزمتنا الإيمان، ما نعرف ربنا، ما نعرف ماذا سنقبل عليه يوم القيامة، ولذلك أخذنا الدنيا كأنها غاية، أتت النقطة الثالثة..

[1] رواه مسلم

المفهوم الثالث: **عظم عندنا شأن الدنيا؛** صار الناس يتنافسون، ويتنافسون ، ويتنافسون ولن ينتهوا من المنافسة، الشح وضعف الإيمان جعل الإنسان في قوقعة يكاد لا ينفع إلا نفسه ومن وافق هواه.

وإذا أتى شخص لا يوافق هواه يمكر به؛ لأنه شح، وممكن قهرًا له بدل ما يعينه، أو على الأقل يكفيه شره يوقعه فيما يضره، فبدل ما نتعاون على البر والتقوى، أصبح التعاون على الإثم والعدوان، وهذا انظره في المدارس، في المراحل المتوسط والثانوي كيف يتحزبون ويتعصبون، ووصلنا إلى ممارسة العنف في مدارس البنات! والسبب شح، ضعف إيمان، حب الدنيا، ولّد مرضًا عظيمًا في نفوس الناس، كبيرة من كبائر الذنوب (حب العلو)، لازم أكون أحسن من كل الناس، بل إن أبناءنا يحفّظوها تحفيظًا، لازم تصير أحسن من غيرك، عند من؟! عن الناس، نافس فيما عند الله لا أحد يقول هذا الكلام، إلا من رحم ربي طبعا نتكلم على وجه العموم، أحسن من غيرك، أحسن من غيرك إلى أن يصبح غيرك عند هذا الصغير هاجس، فيصل الحال إلى التعبدات، إلى عبادة الله لازم أكون أحسن من غيري، فيدخل الرياء، وملاحظة الناس، والكلام عن الأعمال، والتفاخر، وكل واحد يكتب لك هو ما بلغ من السن حتى ما يصبح له أن يكون ورقة سيرته الذاتية ست سبع صفحات فعلت وتركت وحفظت وشاركت.. امدحوني، اثنوا علي!.

فجاءت المصيبة الرابعة:

المفهوم الرابع: **ثقافة الثناء والمدح المبالغ فيها؛** طول النهار يقولون لو ما مدحناهم يتحطمون، لو ما مدحناهم يتوقفون عن العمل، أين التشويق إلى شأن الآخرة؟! أين التشويق فيما عند الله؟! أين التربية على أن هذه دنيا دنيّة، وعند الله سنلقى ما نريد؟! أين الكلام عن الجنة؟! لماذا قوي في نفوس الناس أن كل شيء لازم أن يكون مادي؟! وأصبحت المكافآت ما تشبع أعينهم، وتعطيه ما يشبع يريد الأعلى، فلما تعطيه ما يشبع يريد أعلى، ولا يرضى بأقل شيء.

ومقارنة بسيطة في عشر سنوات نجد انتكاسة عظيمة في هذا الشأن، الناس أصبح لا يرضيهم شيء، وإذا أعطيتيها شهادة تقدير من ورق تعاتبك، أين ملفها الذي لازم يكون من كذا وكذا! وإذا لم يكن في هذه الشهادة كلمات كثيرة تدل على أنك معجبة بها نهاية الإعجاب لا ترضى عنك، المدح والثناء والنبي قال: ((إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ))[1] ثقافة مثل هذه تدخل على المجتمع تزيده بلاء.

يعني اجتمع علينا شح في طباعنا، ضعف إيمان، حب الدنيا، كثرة الثناء، ينتهي الأمر أنه لا أحد يخدم أحد إلا إذا قدم الثاني له إما شيء مادي محسوس ، وإما كيل من المدح ، إذا ما كِلْت له المدح المرة القادمة يقول لك أنا ما أحب أتعامل مع ناس لا يعرفون قيمة الناس، ولا يقدروهم، وأنتم فيكم جفاء، وغلظة وفيكم ما فيكم، .. إلى آخره، والسبب أنك ما كِلْت له المدح، ثم يستعمل المدح في غير مكانه، من لم يشكر الناس لم يشكر الله، ونحن نقول هذا الحديث صحيح، وعلينا أن نشكر الناس، لكن الذي قال هذا الحديث قال لنا ((إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ)) ، إذن ما المخرج؟

المخرج أن تشكر بكلام مختصر، والصحيح أن تقول له (جزاك الله خيرا) فقد أبلغت الثناء، انتهى إلى هنا، وليس كلمات ما لها نهاية.

---

[1] رواه مسلم

أيها العامل للخير، اسمع صفتك عند الله، اسمع صفة الأبرار، قال الله في وصفهم لما أطعموا، وتصدقوا، وتقربوا يقولون للمتصدق عليهم ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] ، واسمعي كلمة شكورا جاءت ثلاث مرات في سورة الإنسان، المرة الأولى أتت في ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ، والمرة الثانية أتت على لسانهم: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ ، المرة الثالثة أتت في سياق الكلام عن جزائهم ماذا قال الله عنهم ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ . فإذا تركت الالتفات لشكر الناس كنت من أهل هذا القول العظيم، كنت من أهل أن يقول الله لك: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ .

كل هذه المسائل مرتبة بعضها على بعضها، ما ظهر الشح بهذه القوة إلا بسبب ضعف الإيمان، وبسبب ضعف الإيمان أصبحنا ما نفكر في الآخرة نفكر في الدنيا، ولما صرنا نفكر في الدنيا أكثر شيء نفعله أننا نلهث وراء الثناء، فانظر كيف هذا المربع أحاط بنا فضيق علينا واسعًا، ووصلنا في نهاية الأمر كأننا في صدفة مغلقة، لا أفكر إلا في مصالحي، أو المصالح التي توافق هواي أو من هم على هواي فأتاني التحزب..

التحزب هذه دوائره من صغير إلى كبير، تتحزب العائلة الصغيرة، الأسرة النواة الأم هي وبناتها، لا يقولون لأحد من أين يشترون ملابسهم؛ لكي يكونوا هم مميزين والبقية ولا شيء! لازم يطلع الباقي ولا شيء وهم أحسن الناس، ثم تتوسع دائرة الحزبية، بدل الأسرة النواة، الأسرة الكبيرة هي وبنات خالها وبنات عمها على الجيران، ثم مدرستهم الفصل الأول يتحزب مع بعض على بقية الفصول، ثم بقية الفصول والمدرسة كلها، أولى يتحزبون على ثانية، وثانية على ثالثة، ثم المدرسة تتحزب على بقية المدارس وهكذا! بحيث ما أحد يصبح عنده مهارة ويقول كيف نخدم الناس؟! كيف نخدم المجتمع؟! نحن شباب عندنا قوة، علمونا ما يخدم المجتمع، خصوصًا مع توافر الأشياء، مع توافر ذوي الخبرة ، ونحن دولة فتية، يقدر عدد الشباب في المملكة بين ٧٨ % و ٧٩ % يعني تصوري في كل ١٠٠ تقريبًا ٨٠ و٢٠ كبار سن، يعني ٨٠ شاب في مقابل ٢٠ كبار سن، دليل على أننا دولة فتية، الشباب لهم دورهم، المفروض تنفتح أبواب للتطوع، أبواب لإعانة الناس.

الآن ستقبل الاختبارات وتأتي الأزمات، مثلًا بنت جيرانك دائما ترسب في الإنجليزي، ما يمر على خاطرك وأنت ماهرة فيه تعالي أنا أدرسك، تعالي أنا أساعدك! التفكير فقط في دائرتي الضيقة، ثم تقول أنا ما فيني حيل، ما عندي نَفَس، هذا هو الشح! الشح أنه أصبح ليس عندك قدرة أن تبذل من أجل الآخرين منتظر الأجر عند الله.

لا تتصور أن التطوع أو العمل التطوعي هو أن تتصدق بالمال فقط، أو أن يكون جهدك في شأن يتصل بالدين فقط، لا، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ فالبر كلمة واسعة، وكما مر معنا في الحديث ((إفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة)) هذه مسألة تتصل بالدنيا، لكن مسألة تتصل بالدنيا من أجل توفير الجهود، من أجل وصول المجتمع للمحبة والألفة.

الآن هذا هو الواقع الذي نعيشه محصورين في هذا الرباعي، وأذكركم مرة أخرى بالرباعي:

١. شح في النفس
٢. ضعف إيمان
٣. حب للدنيا
٤. مع ثقافة المدح.

نريد أن نفكر الآن أولًا: ما الحل؟. ثانيًا: لو وجد الحل ما آثار الحل علينا؟

- المشكلة الأساسية هي ضعف الإيمان.
- والأمر الثاني عدم تقدير نعمة الله، فضعف الإيمان سبَّب لنا عدم تقدير نعمة الله .

العلاج :

علاجنا سيبدأ من تقوية الإيمان؛ فلو قوي الإيمان سيبحث الإنسان عن كل طريق يستطيع به أن يُعين غيره فيصل إلى ربه.

تقوية الإيمان سيدور حول ثلاث محاور أساسية:

المحور الأول: علاقتنا بالقرآن:

نحن في ضعف شديد في علاقتنا بالقرآن، حتى من يجلس بين يدي القرآن حافظًا أو دارسًا أو مدرِّسًا سنجد أن فيه ضعف، والسبب: المفاهيم الموجودة في داخل القرآن ليست مستقرة في وجدانه؛ ليست هي التي أتصور بها الحياة، فالله تعالى مثل الدنيا في ثلاث مواطن؛ في سورة يونس والكهف والحديد، وفي كل موطن من هذه المواطن تأتي الآية التي بعدها آية أعجب من الأخرى، فبعد ما وصف الدنيا في سورة يونس قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ اترك دار الآفات، والله يدعوك إلى دار سالمة من كل الآفات.

أين هذا المعنى مستقر في القلب؟! لو استقر هذا المعنى في القلب، ما تنافس الناس على الدنيا، رغم أن كثير يحفظون يونس، أو يقرؤون سورة الكهف والمثل موجود فيها، أو يحفظون سورة الحديد.

في سورة الحديد ماذا يقول الله عزوجل بعد ما ضرب مثل الدنيا؟ ﴿سَابِقُوا﴾ إلى أي شيء؟ إلى الدنيا وأهلها؟ ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١] سابقوا إلى ربكم العظيم، إلى مغفرته ورضاه، لو سمعت هذا الكلام كما ينبغي، واستقر في القلب كما ينبغي، ما كان وجدنا هذا الطمع في الدنيا، لكن مشكلتنا الرئيسة الآن علاقتنا بالقرآن، معانيه غير مستقرة في الوجدان، ما نقرأ كما ينبغي، ولا ندرس كما ينبغي، من ثم لا تأتي المعاني في قلوبنا كما ينبغي، فعلاقتنا بالقرآن علاقة حروف، نقرؤه ما تصل معانيه لقلوبنا، ولو أردنا أن نفهم هذا انظري ما تحفظين وأوصفي الله عزوجل مما تحفظين، نجد نفسنا ما نجد معرفة بالله كما ينبغي.

في مطلع السورة يقول تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:١-٤] أين هذه المشاعر تجاه هذه الحقائق؟!

انظري بعد ستة آيات يعود السياق ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:٥-٦] بعد هذا التعريف كله يقول الله عزوجل: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧] أنت تنفق مما جعلك الله مستخلف فيه، مرتين قال لك في هذا السياق ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ولذلك في نفس الآيات ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠] لو هذه المعاني مستقرة في النفس كان كل ما أملكه سواء من مال أو قدرات أو جاه أو مهارات سأنفقها لأني أعلم أن الله هو الذي أعطاني إياها، وهو الذي يورث ما في السموات وما الأرض، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لو هذه المعاني مستقرة في القلب ما تجد الشح إلا وقد تعالج، لكن أين الإشكال؟

الإشكال الأول علاقتنا بالقرآن ضعيفة، فالواقع الذي نعيشه في مربع مغلق علينا (الشح، مع ضعف الإيمان، مع حب الدنيا، مع ثقافة المدح) أغلق علينا العطية والتطوع، ومساعدة الناس وحب الخير للآخرين، وإن كان موجودا لكن تجده خاملًا، ولا ندرب أبناءنا في بيوتنا على الإعانة، مع أن أهل مكة خاصة دون الأرض عامة عندهم أبواب من التطوع وخدمة الناس ما لا يوجد عند غيرهم، وقد كان يقول ابن عباس عن أهل مكة: أن حق ضيوف الله عليهم أن يخرجوا لاستقبالهم، وأن يرحبوا بهم، وأن يكونوا في خدمتهم. فأبواب التطوع عند أهل مكة خاصة من دون الخلق كلهم أبواب لا تنتهي، لكن لا توجد هذه الثقافة، لا توجد هذه المشاعر تجاه هذا الأمر، والسبب كما اتفقنا هذا المربع الذي أغلق علينا الحياة، والمسألة لا تخص أهل مكة، الكلام عن كل المسلمين على وجه العموم وخاصة في الأرض التي تستقبل الناس، فالمملكة عمومًا والوطن العربي والإسلامي كله يأتي على رأسه مكة، مكان لأبواب التطوع، هذه الأرض الطاهرة المقدسة، أنت تعيش في قطعة من الحرم، هل أنت مقدّر في أي أرض تعيش؟! هذه الأرض اصطفاها الله واختارها، هنا دَرَج الأنبياء كلهم، هذه دار نبينا صلى الله عليه وسلم، لو كان في القلب تعظيمها كان هناك بذل جهد شكرًا لنعمة الله على أن خصنا بسكناها، لكن الأمر ما يتصل فقط بشعورنا، إنما يتصل بمجتمع تغيرت أفكاره، والسبب كما اتفقنا هذا الرباعي، أصل هذا الرباعي كله مشكلة واحدة : ضعف الإيمان.

فأول سبب لضعف الإيمان: ضعف علاقتنا بالقرآن، ولا أحد يستشهد يقول ما في مدارس تحفيظ، الآن مدارس التحفيظ مقارنة بعشرين سنة مضت لا مجال فيها للمقارنة من كثرتها، وقربها، وعدد الحفاظ، لكن العلة واضحة (أننا نقرأ بألسنتنا) لما يأتي أحد يقول لنا من هو الله؟ ماذا نعرف عن الله؟ ما معنى أن أقول بعد الصلاة "اللهم أنت السلام ومنك السلام"؟ لماذا أردد الإخلاص والمعوذتين؟ ماذا يجب أن يكون في قلبي وقت ما أقول ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد﴾ ماذا يجب أن يكون في قلبي؟ كم من ضعف في قلوبنا كان حله أن نقول الصمد ربنا، السيد الذي قد كمل في سؤدده، الذي أفزع إليه في كل ضعف، وأنا دائمًا في ضعف.

هذه المعاني ماهي موجودة، فأصبحت العلاقة بيني وبين القرآن مجرد تحصيل، والتحصيل دخل في الشح، لماذا؟ لأن هذا يريد أن ينجز، هذا يريد حفلة بعد ما خلص حفظه، هذا يريد منك ثناء لأنه ختم، هذا لأنه أصبح مجازًا يريد أن تقدسيه، فحتى المعاملة مع القرآن دخل في أبواب الشح، نحن لا نريد أن نضع رأسنا في التراب، نريد أن نقول الواقع، ونتحراه كي نجد حلاً، الحل هذا ليس لنا نحن بل لنا وللأجيال القادمة، كيف أزرع في نفسهم حب العمل الذي يخدم فيه غيره ما يطمع فيه؟!

يا جماعة حتى من يشتغلون في وظائفهم أعمالهم التي يأخذون عليها رواتب لا يقومون بحقوقها! فأكيد ثقافة التطوع هذه معدومة، إذا العمل الواجب عليه ما يقوم بحقه كما ينبغي، في كل هذا الكلام إلا من رحم ربي، والاستثناء موجود، والأمناء موجودون، وما خلا في الأمة والحمد لله، لكن نقصد كثقافة عامة، كوضع حالي نعيشه في العالم الإسلامي وليس في مكان واحد.

القرآن لو دخل إلى الوجدان وامتلأ القلب بالقرآن، ستنكشف حقيقة الدنيا وتذهب الغمة، ونعرف أن كل باب من أبواب إعانة الخلق باب نحسن فيه إلى أنفسنا لا إلى الخلق ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ إذا عرفنا نحل هذه المشكلة، وهي أكبر مشكلة أضعفت الإيمان، وإذا استطعنا من القرآن أن نعرف ربنا، وأصبحنا نمارس حقيقة الإيمان بمعرفة الرحمن..

المحور الثاني: طاعة النبي صلى الله عليه وسلم:

تعلمون أن ديننا مبني على الاستسلام، فجوهره الطاعة، جوهر الدين أنك تمشي على دين النبي صلى الله عليه وسلم، أن تجعله صلى الله عليه وسلم قائدك إلى الله، فإذا خرج علينا في وضعنا الحالي كل يوم آراء، تخرج الناس عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، وصلنا لحد الانتقاد لسنته، وإن كان انتقاد خفي نستحي أن نصرح به لكن في النفوس إحساس لماذا نفعل كذا ولماذا نفعل كذا؟ وخصوصًا من فئة الشباب، تكبر المشكلة أكثر فأكثر فيحصل إهمال لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، تعيش يومك وليلتك ولا تسأل ماذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذا الموقف؟ وكأنك لا تعرف أنه النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، وكأنك لا تعرف أن الشريعة كاملة، وأن كل ما يمر على الخلق إلى قيام الساعة أصوله موجودة في السنة.

عندما ينزل المطر، ويأتي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تعرض للمطر فحسر ثوبه فلما سئل عن ذلك قال: ((لِأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى))[1]، موقف بسيط يمكن أن تمارسه، ويقع في قلبك فعله، يقع في قلبك أن تفعله مثل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

يأتي الحديث عائشة رضي الله عنها تصف "أتت فاطمة رضي الله عنها تمشي كأن مشيتها مشية النبي صلى الله عليه وسلم" فقال: ((مرحبًا بـابنتي))[2] صلى الله عليه وسلم.

ها هي أفعاله تدعوك أن يكون هو قائدك في تفاصيل حياتك، لكن ألسنا هاجرين لسنة النبي صلى الله عليه وسلم؟! ألسنا هاجرين لا نعرف عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم إلا الشيء اليسير، واليسير مستغنين عنه في حياتنا! حتى اليسير في سنة النبي صلى الله عليه وسلم مستغنين، إلى أن استطاع أهل المشرق والمغرب من على أبراجهم وهم يجادلون في الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج:٨، ٩]، استطاع من هنا ومن هناك أن يقول لكم من قال لكم أن هذه من سنة النبي

[1] رواه مسلم في صحيحه.
[2] ابن ماجه، الألباني: صحيح

صلى الله عليه وسلم؟! من الذي وثقكم في البخاري؟! من هو أبو هريرة لهذه الدرجة؟! والسبب هجر ابتدأناه، نحن ابتدأنا الهجر، لو كنا نعرف كيف حفظ الله دينه، ما هذه القصة العجيبة في تسخير هؤلاء الرجال لحفظ هذا الدين، كان ما استطاع مثل هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير علم أن يتمكنوا من عقول أبنائنا، لكننا هجرنا السنة، ونستعجب كيف أهل البدعة يتمسكون ببدعتهم! نستعجب كيف أهل البدعة يربّون أبناءهم على بدعتهم، ونحن هجرنا السنة، لو فكرنا آخر مرة بحثنا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعرضنا لموقف وبحثنا في من يقيّد سنته، نجد أنفسنا من بعيد، وقد لا نعرف أصلًا الكتب التي نبحث فيها، هذا كله سبب رئيسي لضعف الإيمان.

الطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، شعورك أن يومكِ وليلتكِ لابد أن يمتلئ بطاعته ، بامتثال أمره ، بمتابعته.

الضعف سبَّب ضعف الإيمان من المؤكد، الملك العظيم لما اصطفى النبي الكريم، وأرسله إلى هذه الأمة، ما حق النبي؟! أليس تعظيمه، وتوقيره، ومتابعته، والحرص على السير وراءه؟ وهذا لا يكون إلا بالعلم، فأين هو العلم؟! أين البحث في سنة النبي صلى الله عليه وسلم؟!

لا أحد يقول شبابنا لا يقرأ، ها هم يقرؤون التافه من الكلام، ها هم يعبثون في عقولهم كل يوم بقصة ورواية وكلام لا قيمة له، ها هم تركوا سنة النبي والحق، وبدل أن يتدارسوا سورة مثل سورة الجن ليعرفوا من هم هؤلاء الجن مثلًا، وما عقيدتنا فيهم، وماذا أتانا من خبر، يقرؤون رواية تافهة ترفعهم إلى عالم الخيال ، وتذهب بعقولهم ، أين نحن؟! أين نحن من ديننا؟! سواء كان من كلام ربنا، أو من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ما تخبط الشباب إلا بسبب أن الكبار القواد لم تمتلئ قلوبهم بالإيمان، والعاملين المهمين للإيمان غير موجودين، أو ضعيفين، أو يعاني العامل الأول وهو علاقتنا بالقرآن بالضعف، ويعاني العامل الثاني وهو علاقتنا بالسنة بالانعدام، هذا واقع، إلا من رحم ربي، ونبقى نقول يبقى في الأمة الحمدلله من هم خيرها، وينقلون هذا الدين، لكن لابد أن نوصف الوضع العام.

المحور الثالث: استقبال الشبهات:

الإعلام، وسائل التواصل الاجتماعي، كلها جعلت الشباب والكبار عرضة للشبهات، عرضة للشهوات، ضعف الإيمان وأصبح كل واحد يتكلم في غير فنه، ومن تكلم في غير فنه أتى بالعجائب، يوم يخرجون يقولون: النبي-صلى الله عليه وسلم- لم يكن أميا بل كان كذا وكذا، يوم يقولون لك: هذه الآية ليس معناها كذا، والهداية كذا، وكل يوم يطرحون عليك شبهة تستقبلها الوسائل، وكثير من الناس أصلًا لا يقرأ الذي أرسل إليه يرسله إلى غيره، وهكذا تنتشر البدع، وتنتشر الشبه، ويرهق مجتمعنا وإيمانه، ثم تأتيه هذه الوسائل توصل الأبناء إلى درجة التشكيك في المسلَّمات الدينية، إلى أن نسمع مصيبة هنا وهنا وهناك أن هؤلاء تركوا دينهم!

في تقرير أخير أن ٨٩ % من الشباب يستعملون هذه الوسائل لتعلم الدين، خلاص ذهب العلماء! وذهبت المدارس الشرعية وأصبحت طرق التواصل هي التي توصل لهم الدين! وبئس الطريق، وبئس العلم.

الحل واضح إذا كانت هذه الثلاث الدعائم:

١. علاقة صحيحة مع القرآن.
٢. تجديد العلاقة مع السنة.

٣. غلق باب الشبهات عن طريق الوسائل.

في تقرير أخير أن ٨٩ % من الشباب يستعملون هذه الوسائل لتعلم الدين، خلاص ذهب العلماء، وذهبت المدارس الشرعية وأصبحت طرق التواصل هي التي توصل لهم الدين! وبئس الطريق، وبئس العلم.

على كل حال أول حل للمشكلة كما اتفقنا من أجل أن يكون مجتمعنا بعيد عن هذا الانغلاق، وكأنهم في صدفة أغلقت عليه قواه، ونحن نخاف على أنفسنا وعلى مجتمعنا أن يوصل إلى هذه الحالة فيصلوا إلى بطرِ نعمة الله فتذهب النعمة عنا، ماذا نفعل؟! أول الأمر نصحح إيماننا، نقوي إيماننا بتجديد علاقتنا بالقرآن، وبفتح باب للسنة، وبغلق باب الشبهات والشهوات التي تأتي من وسائل الاتصال، أنت لست مجبورًا أن كل يوم تفتح جوالك وتجد ٨٠ ، ٩٠ ،١١٠ من الرسائل تقوم تقرأها كلها، اقرأ كلام الله بدل ما تقرأ هذا الكلام، اقرأ عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن سنته خير لك من أن تقرأ هذا الكلام، لا أحد يوهمكم أن هذه الوسائل وسائل تعليم، هذه الوسائل ترشد البعيدين لكن الصادقين القاصدين يحافظون على أزمنتهم، ويسيرون الطريق المستقيم، وهذه كما تأتي بالخير تأتي بالشر، وكما تأتي بشيء صافي تأتي بشيء مشوش، فلا تجعل نفسك عرضة لمثل هذا لا أنت ولا أبناؤك، ليس مصدرًا للإيمان. هذا علاج للمشكلة الأولى وهي ضعف الإيمان.

كيف يؤثر الإيمان إذا دخل على العمل التطوعي، على خدمة الناس، على الوصول إلى مجتمع متعاون؟!

يعني كيف أستطيع أن أصل بالإيمان ليصبح في المجتمع ثقافة التطوع؟ ثقافة التطوع هي أن كل فرصة أستطيع أن أخدم فيها أخدم، وخدمتي لله.

المسألة الأولى: نحن نؤمن أن الله خلق الناس متفاوتين؛ متفاوتين في كل شيء، في قدراتهم، في نظراتهم، في مهاراتهم، في كل شيء، اختلاف التنوع بين الناس سبّب سهولة التعاون، يعني هذه شابة أو امرأة في بيتها، مشاكلها كلها مع زوجها أنها لا تحسن طبخًا مثلًا وأنتِ محسنة، اجعلي هذه هدف في الإصلاح؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ؟)) قَالُوا: بَلَى قَالَ: ((إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ))[1]. فلما انظر لهذه المرأة المتزوجة، وعندها مشكلة مع زوجها على أنها لا تحسن أني أنا أريد أن اصلح ذات البين لكن من جهة تعليمها المهارة، سأكون قد تقربت إلى الله بإصلاح ذات البين.

المقصد: **أن الإيمان يجعلني أفكر فيما عند الله، ويجعلني أفكر فيما وهبني الله**، ماذا وهبني؟ ماذا أعطاني؟ قدرة، جاه، كلمة، الناس تسمع لي، الناس لو كلمتهم يصلحون، لو هدأتهم يهدون، ماذا أعطاك الله؟ وكيف تتقربين بما أعطاك الله لله؟ إذا آمنت أن الله وهب الناس مواهب فتشي عن ما وهبكِ الله. نحن لا نريد الثناء والمدح، ورفع النفس على الناس، نريد أن نقول نحن مؤمنين أن الله أعطانا ما يميزنا، فتِّش عن ما أعطاك الله، قدرة في اللسان، قدرة في البيان، ماذا أعطاك الله؟ فتش! لما تفتش وترى نفسك ماذا أعطاك الله انظر إلى نفسك وتقرب إلى الله بما أعطاك الله.

[1] رواه أحمد وأبو داود والترمذي، تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح.

المسألة الثانية: إذا كنت في هذا ذا شأن فكرت، وصدقت الله أنك تريد أن تتقرب إلى الله بما وهبك الله، والله **ليفتح لك أبوابًا لا تعلمها**، وتأتيك اختبارات أن انظر هذا محتاجك أن تصلح ذات بين، انظر هذا محتاجك تعامله بجاهك، انظر هذا يحتاجك أن تساعده في كذا، وأنت انظر ماذا تفعل؟ تريد الله تبذل، لكن فتش ماذا أعطاك الله، واليوم نحن نعاني كثيرا من الأمراض النفسية، وكثير من الأمراض النفسية يحتاج ما يسمونه بـ "الجلسات المعرفية السلوكية" وهذه الجلسات هي علاج بدون دواء، يعني شخص مثلًا مصاب بالاكتئاب، يعالجوه طبيًا بـدون أدوية، هذه الأدوية غالبًا أثرها أنها تثبط الاكتئاب من جهة أنه لا يشعر بالأشياء، لكن هذه الجلسات المعرفية يعني أحد يأتي يتكلم معه كلام، هذا الكلام يغيّر مشاعره، فيتحسّن حاله، مثل ما يمر علينا، لكن هذا يصل أن يصبح مرضًا، وهذا يصبح علاجًا، يعني هو كأنه يقولون تعديل السلوك عن طريق المعرفة، فأنت الآن تعرف الله، وتحفظ شيء كثير من الأدلة في كمال صفاته، تحفظ كثير من الأدلة في قرب فرجه، الأمر واضح عندك في مسألة التوكل، والاعتماد على الله، ابحث عن هؤلاء، هؤلاء يحتاجون منك زمنًا، يعني لو جلست معهم في الأسبوع ساعتين، ستكرر في الساعتين نفس الكلام، هو يحتاج يسمع نفس الكلام بتكرار إلى أن يصبح الكلام الذي تقوله حقائق في قلبه، طيب أنت تحمل هذه الحقائق ما بك؟! لماذا تقصر فيمن حولك إلى أن يدخلوا في الاكتئاب، في حالات الانتحار! لماذا يصل مجتمعنا إلى هذا المطاف ويصل إلى هذا الحد! مع أن جلسة من ساعة أو ساعتين في الأسبوع تخرجهم.

بدل ما تجلس مع الناس الذين على هواك، وتتكلم معهم في كلام لا يساوي شيء، انقذ نفس إنسان من الوصول إلى الكفران، لأن كثير من هؤلاء بسبب الاكتئاب يتردى ويتردى ويصل إلى حالات لا تستطيع أن تذكرها، ومثله في الوسواس، ومثله في كثير من الأمراض تحتاج منك جهد في البيان، إذا معك كلام الله وفهمت عن الله ما بالك؟ لماذا لا تتعاون مع من حولك؟! لماذا لا نرشد الناس! هذا كله لا يحتاج منك مالًا، إنما يحتاج منك زمنًا، لا يحتاج منك حركة يحتاج منك قوة في العطاء، لا تملّ، ((من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته))، الأبواب مشرعة واسعة تحتاج منا إلى تفكير، مجتمعنا يحتاج التكاتف، نريد أن نصل إلى حد أن نكون المجتمع الذي يأمر بالمعروف، يتعاون على البر والتقوى، نكون المجتمع الذي ينهى عن المنكر، يتعاون على إنكار المنكر، ما أثر هذا كله في نفسك؟

اتفقنا أن العلاج الذي سنصل إليه الإيمان، الإيمان ماذا سيفعل بي؟! أنا أحتاج أن أومن أن الله وهبني مواهب وافتش في نفسي، وأومن أن الله فتح لي أبوابا أصل بها إليه بقدر ما وهبني، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

تأتي المسألة الثالثة: تؤمن أن هذه الأجور محبوسة لك عند ربك ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] تسبقك، تقدمت عنك إن كنت صادقاً، تقدمت عنك هذه الأعمال، فلا تظن أن إحسان الناس محصور في أن تعطيهم مالاً، أو أن تساعدهم في إجارة، ليس محصورًا في الك، الأبواب واسعة في خدمة الناس وإعانتهم.

فإذا آمنت بهذه الثلاثة :

١. أن الله وهبك مواهب.
٢. وأن الله سيفتح لك أبوابًا إذا كنت صادقا.

٣. وأن الله سيحبس لك الأجور.

هذا الإيمان الثلاثي يجعلك تشق طريق التعاون.

نؤمن بأن الله وهبنا مواهب مختلفين فيه، وجعل الدنيا على التكامل؛ أي الذي عندك ليس عند غيرك، والذي عند غيرك ليس عندك؛ لذلك كلنا نتكامل، نحن وأهل الحي، نحن وجيراننا، أين هم جيراننا، نحن وجيراننا نتعاون، نحن وأهل المسجد نتعاون، نحن وأهل المسجد نتعاون لخدمة الأيتام الموجودين في بيت كذا،كل هذه أعمال شريفة، لها مكانتها عند الله، فإذا كنت تؤمن أن الله وهبك.

وإن صدقت في إرادة الاستغلال أن الله سيعطيك، ويفتح لك أبوابًا، وأن الله سيحبس لك هذه الأجور، إذا آمنت بهذا ستشق طريقك في خدمة الناس، ولتعلم أن خدمتهم قربة إلى الله ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ولذلك لابد أن نعرف أن الإحسان يكون في عبادة الله، والإحسان إلى عبيده، ولما نسمع عن الإحسان إلى عبيده لا تحصر الإحسان إلى عبيده في هوانا؛ لأننا نحن نحسن لأصحابنا، نحسن لأحبابنا، نحسن للناس الذين نحبهم، نجتمع لهم، ونركز الإحسان إليهم، وبقية الناس لا نحسن إليهم.

يعني مثلًا نحن في الحرم، الدنيا زحام في رمضان مثلًا، تقبل عليك زميلتك أنت مواعداها، فتسألك في مكان؟ تقول نعم في مكان نتضايق، السعة في القلوب وتدخليها. في موقف ثاني تقبل عليك واحدة لا تعرفيها، في مكان؟ تقولي أين تريدين أن تصلي! ما أعرف أصلي لو هذه بجانبي، سبحان الله! هذا هو التعاون الذي على الهوى، الذي لا قيمة له عند الله ، والسبب أن الذي حركك لهذا التعاون هو هواك وليس القربى إلى الله، كم تستطيع أن تتخلص من هواك كي تتقرب إلى الله.

المقصد إذا فهمنا هذا عرفنا كيف ندخل هذا الباب، ونفتح أعيننا على ما وهبنا الله، ونتعاون، ونصبح مجتمع متعاون، ويبقى علينا قيمة مهمة كي ينجح التعاون، وهي قيمة الصبر. هذا الرباعي.

الآن ماذا سنفعل؟ نؤمن أن الله وهبنا مواهب نختلف فيها عن غيرنا، نؤمن أننا لو صدقنا سيفتح أبواب نعاون الناس بها، نؤمن أن الأجر سيكون عند الله، نؤمن أن الله سيختبرنا في صدقنا، بنت الجيران تأتي لتدرسيها المادة التي رسبت فيها أو التي تخاف أن ترسب فيها فتلعب وتضيع وقتك، والله ينظر إليك، تصبري، تعرفي أنه بلاء، وأنك تستطيعي أن تتجاوزي المرحلة، وبعد ما يخلص البلاء البنت ستهدأ، وتسمع الكلام، وستذاكر، لكن تأتيك اختبار عليك.

يأتيك أحد تعاونيه على شيء، يقول هذا ليس بلازم، هذا ليس له قيمة، ينتقدك، تقول كمان محتاج وما عندك مهارات وتتفلسف! لازم تؤمن أنك ستُختبرين، لازم تُختبرين، ليس كل أحد يدّعي الإيمان يُعطى على ادعائه ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢] الذي يمشي في طريق الإيمان لابد أن يختبر إيمانه، ما في تعاون ويترك، ما في عطية من أجل الله وما يبتلى فيها الإنسان، لازم يبتلى فيها. وبهذا نشق طريقنا في التعاون.

ما أثر هذا علينا كأفراد وما أثره على المجتمع؟!

أثره علينا كأفراد:

أول وأهم أثر: الأجر المترتب على هذه الأعمال التي يسبب لنا زيادة الإيمان، إنه عمل صالح، إذا قصدت به الله، وأول أثر العمل الصالح أنك تزداد إيمانًا، يكفينا هذه لو هذه فقط وصلنا لها نكتفي، لكن الله عزّ وجلّ شكور، من شكره أنه سبحانه وتعالى كما أنت تبذل من أجل أن تخدم الناس، لابد أن يسخر الله لك.

وهذه المصلحة **الثانية** التي تعود عليك: لا يمكن أن تُعطي، وتبذل، وتختبر، وتكون صادق ثم يتركك الله، إلا ويسد لك ثغراتك، يعني الأولى سيكتب لك الأجر، وزيادة الإيمان، والثانية أنت تحسن يحسن الله إليك، أنت تسد ثغرة الناس الله يسد ثغرتك، أنت تستر الله يسترك، أنت تفرج الله يفرج عليك، فيعاملك بأحسن ما تعامل عباده، فإذا تطوعت في خدمة الناس، طوع الله لك الناس يخدموك، لكن ليس هذا مقصدنا، هذا الأثر الذي من كريم نعمائه علينا أن يعطينا إياه، لكن ليس هو مقصدنا الذي بدأنا بالتفكير فيه، نحن بدأنا قربة إلى الله، ونختبر في صدقنا، ثم تعود هذه الوعودات علينا.

ثم إذا كنت شخصًا مارست هذه الممارسة، وطمعت في الأجر من الله، ووجدت كيف الله يعاملك..

يأتيك **الأثر الثالث المهم على شخصيتك**: وهو الأثر الذي تجده في الحياة، فتصبح اهتماماتك عُليا، تخرج من الشح، تخرج من الحزبية، تخرج من التفكير في نفسك أو في الدائرة الضيقة، بمعنى أنك تخرج من الهموم التافهة.

فأول آثار العمل التطوعي زوال الهمّ، يعني أول آثاره في الدنيا زوال الهم، ومن جرب يعرف هذه الحقيقة، يزول الغم، يزول الهم؛ لأنك تشتغل بغير شأنك، فعندما تشتغل بغير شأنك ويجعل الله عزوجل الفرج عليك، ويعاملك بمثل هذا، تزول الغموم التي تنتج عن التفكير في أنفسنا، أو الذي يفعل بها الشيطان يجعلنا نكتئب من توافه الأمور، فهذه من آثاره على شخصيتك.

وأيضًا من الآثار المهمة هنا في الدنيا : أن تصبح ذا نظر ثاقب، يعني تُلهَم الحكمة، مع الأعمال التطوعية، وخدمة الناس، وفهم أحوالهم، تبدأ تصبح حكيمًا، تعرف تضع الأمور في موضعها، التجارب تفيدك، تصبح ذا خبرة وحكمة، تصبح فطنًا، تتصور أسباب المشاكل، إلى أن تصبح مُصلحًا، تصلح نفسك وتصلح المجتمع.

أما فائدة الأعمال التطوعية على المجتمع:

فائدة مهمة وهي: حمايته من الاستغلال المادي، الآن مع ثقافة الدعاية والإعلام، وثقافة المراسلات هذه، أصبحت في ضغوط علينا، بحيث أنك ما تجد شيئاً تريده إلا ادفع، وادفع، وادفع كي تحصل عليه، ولا مهارة بسيطة تريد أن تحصل عليها لأبنائك إلا تقدم لأبنائك من المال الشيء الكثير، ثم صار عندنا ثقافة النهم، والشراء، أنت الآن عندما تعلمي أحداً مهارة أن يستفيد من ملبوسات قديمة، أو يستفيد من كذا، أو من المطبوخ بالأمس اليوم جدده، الذي تتصورونه، ماذا سنفعل؟ سنحسن ثقافة المجتمع الاقتصادية، ونعمل له إحاطة من هذا الاستفزاز المادي، والتجارة بنا، إنهم يتاجرون بنا، يرفعون قيمة الأمور الاستهلاكية بحيث أن الناس يشعرون بأن المال الذي معهم لا يكفيهم، فيزدادوا شحًا وبخلًا وإشكالات، ويشرعون بأن هناك أشياء لازم أن تكون موجودة وهي ليست بلازم أن تكون موجودة، بدل هذا المنتج الذي بكذا وكذا، يمكن أن تستفيد من منتج بأقل، وممكن أن تفعل أنت بنفسك، وبدل من أن تشتري اللبن كل يوم من كذا تستطيع أن تفعل كذا، كل هذه المهارات التي تملكها ماذا تفعل ؟ تحمي مجتمعنا من الإنهاك الاقتصادي، ولما يقل الإنهاك الاقتصادي يهدأ المجتمع، وليس طول الليل والنهار يشتكون ويشتكون، ولا

يشعرون بشيء، لما حيّنا يتدارس مع بعضه، هذه تدرس انجليزي، وهذه تدرس رياضيات، لا أحد يستطيع ينهكنا ماديًا، وتكون ضعيفة وأولادها يتامى..

مثل ما كانت بادرة لجمعية كافل جزاهم الله خيرًا في كونهم طلبوا معلمين ومعلمات متبرعين للأيتام، بحيث أنهم يوفرون أموالاً بدل ما تدفع في الدروس الخاصة. التعاون يحافظ على مجتمعنا من هذا الأمر الخطير وهو الاستهلاك المادي، الضغط المادي يسبب الشح يسبب إشكالات لا نهاية لها.

الأمر الثاني الذي يستفيده مجتمعنا: هو أن يستفيد من الأشخاص الذين ممكن أن يدخلوا في أنواع من الاكتئاب أو أنواع من الأمراض النفسية نتيجة أنهم لا ينتجون، لا يعطون، فلو صار هذا له دور، وهذا له دور، وهذا له دور أصبح في الصحة النفسية، يسبب الصحة النفسية للمجتمع، يسبب النهضة، يسبب التكاتف.

على كل حال في مصالح كثيرة ، وأكيد أنتم لو تدبرتم تجدون مصالح أكثر من هذه التي نناقشها.

ننهي اللقاء بكلمة مختصرة :

ما الطريق لكي نصل ونكون الأمة التي اجتباها الله، التي ميزتها أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟

أن ندرب أنفسنا، ندخل إلى ثقافتنا العمل التطوعي. العمل التطوعي هذا مبني على الإيمان أن الله وهبنا مواهب تختلف عن غيرنا، أننا بالتكاتف والتعاون سنتقرب إلى الله، أن هذا الأمر الذي تفعله ستجد أجره عند الله.

- عامل الله كما يحب الله أن تعامله.
- عامل الله كما تحب أنت أن يعاملك الله .
- عامل الله بتقواه .
- عامل الله بتعظيمه.
- فرج كربة المؤمنين يفرج الله عليك.
- أعن المؤمنين يُعينك الله.
- استر المؤمنين يسترك الله.

فلا تكن ثقافتنا هي الأنا والعلو ، لتكن ثقافتنا أمتنا، مجتمعنا، المسلمين الذين نحبهم قربة إلى الله.

لابد أن نعرف أن زوال مشاعر الحب للمؤمنين دليل ضعف الإيمان، فإذا قوي الإيمان وتعاونا أصبحنا أحباء، ووصف المؤمن أنه يحب لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا من أهل الإيمان المتعاونين على البر والتقوى، التابعين لنبينا صلى الله عليه وسلم.

نسأله سبحانه وتعالى أن نلقى نبينا على الحوض فنشرب من يده الشريفة، ولا نكون من أولئك القوم الذين ردّوا عن ذلك الحوض في ذلك المقام العظيم.